مصطفى عبد اللّه.. ذاكرة شاحبة ووجه مضئ

محمد سهيل أحمد

1

كنت بين السادسة والسابعة من عمري حين وجدت نفسي في محطة قطار المعقل اشارك الكبار من اهلي في توديع " ام عبد الرزاق " المسافرة الى بغداد. كما سمعت. وقتذاك كان حلمي الكبير ان اشاهد قطارا حقيقيا وحلمي الاكبر ان اركبه. وها انا ارتقي درجاته لأدلف للعربة يد السيدة البيضاء العجوز التي كانت تصطحب معها ببغاء في قفص.

لم اكن اعلم ان ما تحقق كان ثلاثة ارباع الحلم.

اذ غادر القطار دون ان اكون على متنه.

ولكن من كانت "أم عبد الرزاق " ؟

كانت جدة الاجنبي الجميل الراحل مصطفى عبد الله من جهة والدته.

2

لم اكن قد التقيت مصطفى عبد الله ولكن ابنة عم لأبي ممن عشت في كنفها لخمس من السنوات كانت زوجة عبد الرزاق خال الراحل والذي سكن حي " الكزارة " بالضبط في بيت عربي الطراز صغير يشكل الامتداد الغربي لشارع اتحاد الادباء ذي الحديقة الغناء والنخلة النارجيل السامقة والذي استولى عليه المتجاوزون بعد عام 2003. وبما ان بيت اهلي لم يكن بعيدا فقد كنت اعشق زيارة عمو عبد الرزاق وشقيقه المعلم المرحوم عبد الوهاب الذي تزوج امرأة من بغداد. ولعل ذلك الزواج يفسر سفر الجدة مع ابنها الى العاصمة. كان العم عبد الرزاق موظفا في الموانئ العراقية وكان صاحب خزانة ملأى بالكتب . على عادة الافندية وصغار البورجوازيين . وفي ذلك البيت اطلعت على كتب ومجلات من امثال الهلال وكتابي ومطبوعات كتابي ومجلة "هنا لندن" و"اهل النفط" وصحف عراقية شتى.

حين انتقل عمو عبد الرزاق الى الحي المركزي في المعقل بحكم عمله لم يمنعني ذلك من زيارتهم لاكثر من مرة. وإن تقلص عدد المرات بحكم المسافة وصغر سني.

3

لم اكن حتى ذلك الحين قد التقيت بمصطفى. ففي يوم من ايام الخريف علق عمي على كتفي كيسا من القماش واصطحبني الى مدرسة " ابن خلدون " الابتدائية الكائنة في نفس شارع اتحاد الادباء ولكن في بدايته تقريبا. هناك التقيت صبيا وسيم الوجه باكيا. فصرت الازمه لأنني اعرفه واعرف اهله الذين كانوا يسكنون بيتا معلقا في البناية المقابلة لمقهى " ابي هاني " بحي البجاري بالعشار. ومع الايام توطدت بيننا الفة واعجاب. على الاقل من جهتي. فقد كنت مذهولا بخطه الجميل مصطفا على سطور دفتر الواجب البيتي الانيق. كان خطه من الجمال بحيث لايمكن تصور ان صاحبه تلميذا في الصف الاول الابتدائي.

كان ذلك الصبي يدعى شاكر محمود عباس الطويل ابن خالة الراحل مصطفى. اذن لم يتسن لي ان التقى الراحل الا فيما بعد حينما اخذني الاهل الى بيت لهم يطل على نهر. سكنوه في منطقة " ام الدجاج ".هناك تسللنا. انا ومصطفى الى ضفة ذلك النهر وشرعنا في صيد السمك. كان لديه شصان للصيد ناولني احدهما مع كرة من العجين ، فقضينا ساعة من اجمل الساعات اذ كانت ساعة اكتشاف للعبة لم امارسها من قبل. بحكم صغر سني بطبيعة الحال.

اللقاء الثاني بمصطفى او ربما الاول لا اذكر تم في بيت اهل الراحل بمنطقة " جلاب " بأبي الخصيب. كان بيت اهله واسع المساحة واذكر انني تعرفت على شقيقه الأكبر سنا والذي كان الاهل ينادونه بـ" حنتوش " تحببا.كان مصطفى يتقافز مثل قط مرح أليف. وفجأة امسك بيدي هاتفا :

تعال يامحمد حمادة لأفرجك على شيء. دخلنا الى غرفة مكتنزة بالظلال. اخرج من تحت السرير جهازا يشبه الفانوس وعركه. واذا به يسكب نوره على شاشة بيضاء معلقة على حائط الغرفة لتتحرك مخلوقات الفيلم وهي تتراكض وتتسلق اشجارا وتطارد غزلانا. ووسط انبهاري سألته عن اسم ذلك الجهاز فابتسم مجيبا بافتخار:

انا صنعته..انه الفانوس السحري !

4

في اوائل السبعينيات اقترب مصطفى مني مكانيا مرتين : مرة من خلال اهله الذين استأجروا مجاورا تقريبا لبيتنا. وكان ذلك البيت مستأجرا من قبل الصحفي المرحوم شاكر النعمة. وسكنه ايضا سعد الجبير مدير عام تربية البصرة والذي كان مديري حين كنت طالبا بمتوسطة التحرير في منطقة " بريهة ". والحقيقة انه مع حلول اسرة الراحل في ذلك البيت. لم نشعر اصلا بوجودهم. نظرا لغلبة الايقاع الهادئ على حياتهم والنابع من نقاء خصيبي قروي. كنت صدفة التقي اخوته من الصغار بنينا وبناتا. لكن مصطفى لم يكن موجودا. كان قد عين مدرسا وآثر ان يتزوج ويستأجر بيتا في المناوي باشا ايضا. ولكن في زقاق قريب نسبيا يقع خلف ما كان يسمى بمديرية رعاية الشباب. ذلك الاقتراب اتاح لنا نحن الاثنين ان نلتقي ؛ نتوقف للحظات ونتحدث في شؤون الثقافة بشكل خاص ثم يمضي كل منا في سبيله. غير ان اطول لقاءين حدثا في مقهى " ابي مضر". اذكر ان مدار حديثنا كان " البيان الشعري" ومديات تأثيره على الشعراء الشباب. من بعدها انصرف كل منا الى همومه. ولم نلتق الا في صيف عام 1976 في مديرية جوازات البصرة القريبة من " الداكير "، فقد طلب ضابط الجوازات مني وكذلك من الراحل ان نتدبر لكل منا كفيلا. فقررنا امرا اذ قمت بكفالته. وبعد ساعات كفلني هو. وسلمنا المعاملة الى ضابط جوازات آخر. انا ذهبت الى الكويت. وهو سافر الى مكان ما خارج العراق وقيل لي انه عاد من بعدها للبصرة قبل ان يتهيأ عام 1978 لهجرته الأخيرة الى بلاد المغرب ومن ثم الى ذراعي الابدية اثر الحادث المروري المفجع الذي اصابه في مقتل. ابان رحلته اليومية الى موقع عمله في احدى المؤسسات التعليمية هناك.

5

اثناء وجودي في الشمال الافريقي روى لي شخص له معرفة وثقى بالراحل مصطفى عن تجربة الراحل المؤلمة مع الزواج الذي انتهى الى الانفصال. وبقدر ما انجذبت لشخصية الراحل بأبعادها الانسانية والابداعية. فانني إذ رغبت في اختياره كواحد من شخوص نصوصي القصصية. بقيت حائرا في اختيار زاوية تناول شخصية استثنائية كشخصية الراحل.كنت وما زلت واثقا من رقة هذا الكائن الجميل. بيد انني اخفقت في الكتابة عنه انطلاقا من حدث الانفصال الاليم الذي لم اكن وما زلت اجهل ملابساته ، فمع اي الطرفين سأقف. انا الذي لم ارتو من لقاءي بمصطفى وما كانت عندي ادنى فكرة عن التركيبة السايكولوجية للمرأة التي تزوجها ثم انفصل عنها. لقد اردت ان تكون شخصية " مختار " وهي الشخصية المحورية في النص تكون الاقرب الى روحية الشاعر الراحل وحياته.

كان عنوان قصتي في البدء تقليديا وهو "كَتَبَ الزمن " ثم استبدلته بـ " الازميل " سلاح الزمن الكاشط المهشم والمفتت. لقد اضطررت في التعامل مع شخصية " مختار " لتكون النتيجة خلطة سردية بين الراوي " انا " والمقصود " الراحل مصطفى " وإذا بي أرسم شخصية نمطية كانت اقرب اليه من حيث الخطوط العامة للأحداث التي سبقت رحيله. وفي الوقت نفسه اضحت شخصية مختار اقرب اليّ فكريا من شخصية مصطفى نفسه. بمعنى انني هربت من الجانب التاريخي للأحداث الى صياغة شخصية محورية جديدة قوامها الراوي " أنا " والراحل " مصطفى ". ومن هنا انخلق كيان ثالث يمثل اجتماع شخصيتين في ثالثة اسمها " مختار " وبهذه " التقنية " تمكنت من انتشال نفسي من وهاد المغالطة حيال شخص طالما احببته واحببت صورته الايقونية سلوكا وفكرا وابداعا. لا املك هنا. في بؤرة هذا الاسى الذي يمض في نسيج روحي. إذ يشتد اشتياقي اليه الا ان ارثيه بأبيات من ابداعه هي الاقرب لرسم تكوينه الجميل مبنى وروحا :

"ابيض هذا الوجه النائم بين الورد. نظيف وانيق كأمير.. ابيض بين الحيطان البيضاء ابيض هاديء قرب الله. "

حلمت أن لي وطناً

بشرى البستاني

ذاتَ غفوة ..
حلمت أن لي وطنا مثل كل الناس
وأن لي في الوطن بيتاً
وفي داخل البيت كلُّ ما قاله باشلار
امنٌ وحبٌّ وأحلام يقظة
وكرسيٌّ غيرُ مخلوع الأطراف
ومكتبٌ يليق بباحثة أكاديمية
يتوافد عليها الطلبة سراً
لتأمين سير قطاراتهم
مكتبٌ لا يلطخه دمٌ لا ادري من أين ينزفُ
ولماذا ...؟
ولا تخفي إدراجُه جروحَ الكلمات والكدمات
ومعضلاتِ ليل اخرس
مما خفيَ وعزَّ بالتياعه عن البوح
وفي البيت غرفة نوم هادئة
وفراشٌ لا تنزرع فيه المسامير
ولا تكتنفه العقاربُ وزنابير المحنة
وحول البيت حديقةٌ لا يرتادها القردةُ والثعابين
وتجرأ الحلم حتى وصل إلى القلب
فحلمت أن في قلبي شجراً لا تهزه الريح
ولا تتساقط أحلامه كورق شجرة المشمش
في شتاء بارد
ولا تنطفئ في الربيع نجومه
شجراً كلما تفيأت ظلاله قلتُ :
ما شاء الحكامُ ، لا قوةَ إلا بهم
لكنَّ انفجار روضة الأطفال حيال بيتي
هزَّ الغفوة بعنف
فحلّت الصحوة
ومع الصحوة أفقتُ على حوافي نهرٍ غاض زلالُه
وجفَّ في قاعه السمك
نهضت سريعا ..
أفتح نوافذ بيت ليس كبيت باشلار
تحسباً من تلاحق انفجارٍ جديد

صعفات الكائن الوديع

إلى عبد الكريم كاصد.. طبعاً

وديع شامخ

مساءً حين تجتمعُ الأوجاعُ الى قلبه ، يمسكُ -ملقط النار- ويُقلّبُ الجمرات واحدةً إثر طعنة ..
يتدفأ العاشق بالجراحات ويصب دمه زيتا لموقد الإحزان
مساءً حين يذهب المنتصرون الى مخادعهم بوفرة عالية وشحوب واضح في الضمير
يصحو الكائن ليشعل شمعات الغفران للذين غفوا على حرائق الآخرين
مساءً حين تذهب الطبيعة الى سكونها
يذهب العاشق ليضيء القمر الذي تركه " الوشاة " بلا زيت
مساءً حين تجهضُ السماءُ شهبا ونيازك
يذهب الكائن الوسيم الى الخوف، يقيمه من فزعه
يطبع قبلة على جبينه المرتعش ويمضي
مساءً حين تذهب شياطين الليل الى بحار الجنون
يقف العاشق رافعا أكاليل العطور لرقبة الليل الذي أدمن حياكة أثواب الفضيحة .
مساءً حين تزحف صحراء الناس على خضرة الطبيعة
يمدّ الكائن جسده قربانا لغوايات مديدة ..
مساءً وحين تغلق الانوار أبوابها
يطلق العاشق بخور الرؤيا شراعا للقادمين ..
مساءً حين تلفظ الحانات أفواج العميان
يشرق الكائن ببصيرته
مساءً حين يذهب الإنسان - كامل الدسم- الى حضيرته
يرفع الكائن رغوة روحه مدادا لانتشال الغرقى
مساءً ودخان المواقد شوارع العبودية
يرفع الكائن رايته البيضاء لمسح السواد عن الجباه
مساءً وعندما يذهب المشيعون الى عتمة أيامهم
يمزق الكائن كفن العقل .
مساءً حينما تصحو المقابر على سواحل الحزن
يشعل الكائن أصابعه على كمكة الوجود الموحشة .

كيف قضى عبدالقوي النشيط لياليه الأخيرة

أثياس ألماس

الليلة الأولى

وها أنت يا عبدالقوي لا تقوى على إنهاء ممارسة نشطة واحدة ولذا يفكر كبار عشيرة (النشيط) برفع هذا اللقب من اسمك خشية أن تذوب العشيرة في أوهام الفراغ اللامجدي، لحظتها تصير العشيرة في خبر كان.

عاود الكرة مرة ثانية، عله ينشد شيئا من شبقه الجنسي اللاهب والساخن، فكثيرا ما شكت من نامت أسفله تكراره المستمر والتحامه، لحظتها كان يردد نشواناً بعد كل جولة (كان عبدالقوي النشيط يسمى العملية بالجولة).

- ها أنا ذا رمزاً للقوة والجبروت، رمزاً للخصب.

عاود عبدالقوي النشيط المحاولة ثانية، كما لو انه سيف ساقط من غمد متهالك وفارس محنط على شاطئ جاف.

في تلك اللحظة حزن عبدالقوي النشيط وكاد أن يبكي، توجه نحو الحمام، فأغتسل وبال، ثم اغتسل مرة ثانية ونام.

الليلة الثانية

- عليك بالمنشطات يا بن عبدالشديد النشيط، فإنها تعيدك شابا وتمد في جسدك قوة عشرين حصاناً..

لم ترق الفكرة لعبدالقوي النشيط..

- أتريدني أن أكون أباً بحيوية غيري.. شرعا لا يجوز ذلك وماذا لو عرفت العشيرة بهذا العمل المشين المكروه والمحرّم.

ليلتها تهيأ عبدالقوي بن عبدالشديد لجولة أخرى عسى ولعل يعيد شيء من أمجاده وحروبه السريرية، التهم ملء كفين تمرا أعقبها بملعقتين دبسا وبعد لهاث ولهاث، تارة إلى الأعلى وأخرى إلى الأسفل، ومضغ وقبل ومداعبات هنا وهناك، وسيقان تتشابك، وأصابع تتلاحم وأجساد تتداخل.

استلقى عبدالقوي عبدالشديد النشيط جانبا.. تتساقط على وجهه مساحات الضوء المنهمر من مصباح علق من منتصف السقف يخيل إليه حبل مشنقة تهتز.

الليلة الثالثة

مهنياً: تنفس الصعداء بعد أسبوع من القلق والتوتر، عاطفياً: الحياة حلوة فلا تحزن إن أزعجك الليل والسرير والوردي قليلا..

اجتماعيا: لا يعتقد انك تكذب فأنت أصيل كالخيول الأصيلة، مسألة طارئة تتعلق بشيء من صحتك، لا تشغل بالك.

في زاوية أخرى من الصحيفة قرأ عبدالقوي (انتقل إلى رحمة الله الشيخ..)، رمى الصحيفة جانباً، في اليوم التالي وجد السيد عبدالقوي عبدالشديد النشيط ميتاً وجهاز التلفاز لما يزل يعمل والى جانب جثته قرصا يصور العلاقات الجنسية بين الحيوانات، فهم المحقق هذه العلاقة من صورة غلاف القرص والتي كانت ثمة عصفورة تهتز فوق مؤخرة ذئب.